



رواد

سنوات مع رائد البحث في التراث الشعبي الأردني

الأستاذ الدكتور هاني العمدة

نايف النوايسة *

منذ عرفته سنة ١٩٧٧م مديراً لدائرة الثقافة والفنون التي صارت في ما بعد المرتكز الرئيس لوزارة الثقافة، عرفت فيه الصديق والأخ الكبير، ولم تستحکم بيننا مسافة غير تلك، فلم يكن هو ذاك المسؤول الذي لا يرى في الموظف إلا تابعاً ومرئوساً لا خير فيه إلا الطاعة وتنفيذ الأوامر، وإنما كان الأخ والصديق والمثقف الذي يحلو الجلوس معه، والاستماع إليه، وكنت حينها وافداً من قبضة إدارية شديدة الإحكام؛ كنت منقولاً من ديوان الخدمة المدنية (ديوان الموظفين سابقاً). كان العمل الثقافي المنتج هو الجسر الذي نلتقي عند منتصفه، هكذا فهمت طبيعة هذا الرجل الذي أسلس لنا قياد هذا العمل بما تميز به من بشاشة وحسن معشر ووعي مدرك للمداخل اللاتقة لأمر الثقافة واحترام الآخر في النقاش وتعاطي الآراء.



أو الوجود في جلسة يكون لها ما يكون حين أعاود الاحتراق في العمل الإداري الممل في ديوان الموظفين.

في دراسة العمدة هذه تعرفت إلى أجواء جديدة يسرت لي الدخول في عالم التراث، فإذا كنت منتمياً لهويتي القصصية ولا أحميد عنها فإنني أميل إلى التراث حين

أجد النفس تواقفة إلى رياض أخرى، من هنا مُدَّت الجسور كي أكون في ما بعد أحد موظفي دائرة الثقافة وبإمارة الدكتور هاني العمدة.

وكأي موظف جديد خشيت كثيراً من تغيير المناخ عليّ... من وظيفة إدارية ووسط بسيط بالكاد يقرأ الجريدة إلى وسط يمضي نهاره في بجة الثقافة وشطآنها. كانت تلك لحظة حسبت لها ألف حساب، لكن أرحمياً الدكتور العمدة في التعامل وكذلك دفع الزملاء في دائرة الثقافة والفنون آنذاك عززت في ولادة السنوات العشر الثقافية السمان. كنت أقرأ ليلاً ونهاراً حتى أكون قادراً على مجازاة أعباء الجو الثقافي الذي بدأت أعيشه في نهارات هذه الدائرة، مع أنني كنت قارئاً جيداً ومتابعاً دقيقاً للحركة الثقافية.

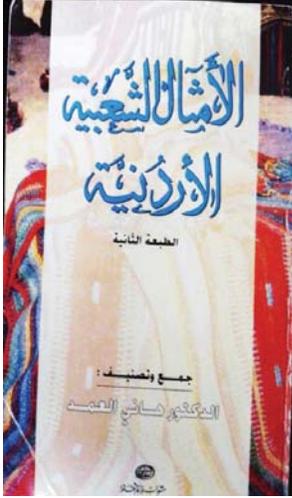
لقد عرفت الدكتور هاني العمدة مبكراً قبل أن ألتقيه، فقد قرأت له كتابات أعجبتني مضمونها والأسلوب الذي صيغت فيه، وكما تعلمون بأن الإنسان هو الأسلوب فكيف إذا كان كاتباً، فصرت أتابع كتاباته وكتبه حتى نمى لديّ بأنني أراه وأسمعه، تماماً حين نقرأ لشاعر أو ناثر قديم وتناثر بما كتب، فكم منا من يترجم شعر امرئ القيس والمتنبي وأبي العلاء المعري إلى حالة تشابك حسني مع كل واحد منهم، وكذلك الجاحظ والتوحيدى وابن عبد ربه وغيرهم، وكم منا من تمنى أن يرى هذا الشاعر وذاك الكاتب، وهو ما كان مني تجاه الدكتور العمدة.

كان أول ما قرأت للدكتور العمدة هو دراسته المعنونة بـ(الفولكلور في الضفة الشرقية) التي ضمها كتاب (ثقافتنا في خمسين عاماً) الصادر في دائرة الثقافة والفنون عام ١٩٧٢م، ولعلني من هذا الكتاب بدأتُ صفحتي الأولى التراث ومع هذه الدائرة؛ إذ ترددت عليها كثيراً مهنياً النفس في كل مرة الحصول على كتاب أو مجلة



* باحث في التراث الأردني

لم يقف الأمر عند هذه الدراسة وحسب وإنما قرأت ما كتب الدكتور هاني في مجلة الفنون الشعبية وبعض ما نشر في الصحف. كنت قريباً من الرجل قبل ورود يناييع الدائرة، وحينما انتدبت مدة سنة لدائرة الثقافة تزاملت وبعض الزملاء الجدد الذين ما زلت على صلة بهم مثل الأستاذ إبراهيم العجلوني الذي تربطني به رفقة طيبة، وخلال هذه السنة زارت الأردن فرقة فنية كبيرة من كوريا الشمالية، وأرسل الدكتور هاني في طليي وطلب الأستاذ العجلوني وقال لنا بالحرف الواحد: المشاركون في هذه الفرقة مثقفون ومن بلد يتميز باحترام الإنسان وعدم التجاوز عليه وأنتما مرافقان للفرقة طوال الأسبوعين اللذين ستمضيها الفرقة في الأردن. قبلنا بالأمر وبعد حين انشغل الأستاذ إبراهيم وتحمّلت عبء الفرقة وحدي.



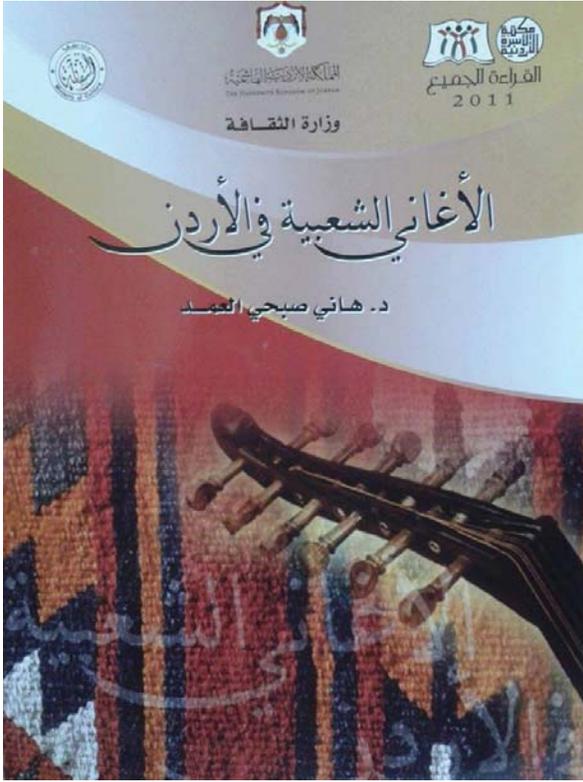
لقد عدت إلى معظم ما كتب الدكتور هاني، وقائمة كتبه ثرة وغنية ولا يمكن تجاوزها عند الشروع في بحث أو كتاب، فكانت (البكائيات) و(الأمثال الشعبية) و(أغانينا الشعبية) قريبة مني وأنا اشتغل على كتابي (الطفل في الحياة الشعبية الأردنية)، فضلاً عن أن كتبه (ملاحح الشخصية العربية في سيرة الأميرة ذات الهمة)، و(الأدب الشعبي في الأردن)،

و(أبحاث في الأدب الشعبي) باتت في متناول اليد كلما شاركت في ندوة أو مؤتمر حول التراث للاستفادة من تجربة هذا العَلم، زِد على ذلك قيمة ما كتب عند خبراء التراث وباحثيه في الداخل والخارج، فقد سئلت عنه في مصر ولبنان والعراق وسوريا، وكان السائلون ممن لهم باع وذراع في هذا المجال.. لم تمر سنة إلا ويتحف أستاذنا مكتبة التراث بكتاب مفيد، فقد أصدر سنة ٢٠٠٧م كتاباً رائعاً في اسمه عظيماً في مضمونه هو (أحسن الربط في تراجم رجالات من السلط)، وقد شغله هذا الموضوع أكثر من ربع قرن، وجمع في صفحاته الثلاثمائة وعشرين تراجم لشخصيات سلطوية، تبدأ هذه التراجم من الفترة التي شهدت حملة إبراهيم باشا المصري إلى المنطقة سنة ١٨٣٢م، وبدأها بإبراهيم إسماعيل سليمان الحارس المولود بالسلط سنة ١٨٨٢ والمتوفى سنة ١٩٦٣م وأتمها بيوسف منصور العسكرية الدبانية(يوسف السكر) المولود في ١٨٦٠م والمتوفى سنة ١٩٣٢م، ومن جميل ما ورد في هذه الترجمة أن يوسف السكر تبرع للمسجد الصغير عندما بني بالمصاييح، وأن بعض المشايخ ختموا له القرآن عندما جاء خبر موته.



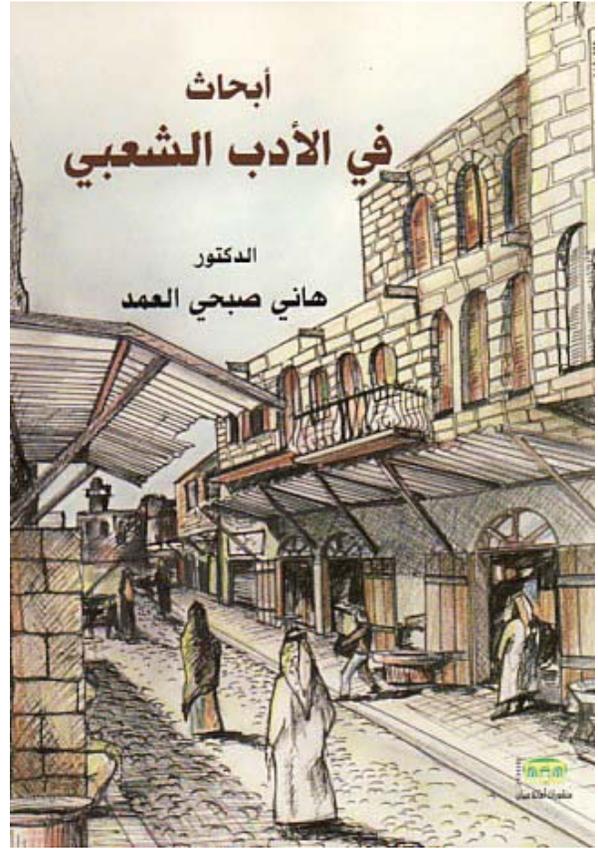
في هذه الأثناء انتقل التفكير بمموم التراث من الحديث الخجول إلى الجهد الميداني؛ إذ شكل الدكتور هاني فرقاً للمسح الفولكلوري في الأردن وكنت ممن شارك في هذا المسح، وكان حصيلة ما تجمّع بين أيدينا حوالي ١٠٠٠ شريط كاسيت؛ أي إننا اشتغلنا على كنز تراثي كان مخبأً ومتناثراً في كل أنحاء الأردن. وبعد عملية التسجيل كانت عملية التفرغ على الورق، لكن بعد حين من الزمن تفرقت هذه الأشرطة أيدي سباً لولا ما استنسخ منها لجامعة اليرموك وجامعة مؤتة، وقامت مديرية التراث المشكلة حديثاً بوزارة الثقافة بمتابعة هذا الشأن. وفي تقديري أن مثل هذه الجهود الضائعة في المؤسسات الرسمية تحتاج في كثير من الأحيان إلى الجهود الفردية التي يبذلها خبراء التراث والباحثون فيه كي تظل وتيرة الاهتمام بالتراث الوطني مشدودة وهو ما نتابعه حالياً بإشراف الدكتور هاني، وحين صدرت الطبعة الأولى من كتابه الأمثال الشعبية الأردنية سنة

هؤلاء المهتمين بالتراث، وهو مرجع مهم ورئيس لمن أراد البحث في شؤون التراث الشعبي والمشتغلين فيه.



إن الخوض في بحر الدكتور هاني العمدة يحتاج إلى أشعة قوية، وصفاء ذهن، وتفريغ تام؛ لأن ما قدمه أستاذنا طوال الخمسين السنة الماضية لا يواقي قارئه بسهولة، ولا يسلس له القياد إن لم يخلص إليه.

ومن حسن الحظ أن العلاقة مع أستاذنا لم تنقطع من ذاك الحين، فقد ربطتنا الاهتمامات الواحدة بمشاريع ولجان ورحلات ولقاءات وندوات وهموم، منطلقها الأردن وطناً وأجنحتها ممتدة إلى العالم كله، وحسينا من توالي اللقاءات معه ما يكون في جلسات مكنز التراث الوطني الأردني الذي شكل عنواناً جديداً لنا، وأحيا فينا الشغف التراثي الذي جمعنا في دفتر عائلة تراثية واحدة.. أمد الله في عمر أستاذنا وجمعنا وإياه دائماً على الخير والمحبة والعتاء.



أما الكتاب الثاني الذي أصدره الدكتور العمدة سنة ٢٠١٠م فهو (مقالات حسني فريز)، جمع وتحقيق، في ثلاثة مجلدات، وقد عانى الكثير في رحلته مع هذا الكتاب، وفي رأبي أن هذا العمل الكبير هو وفاء ما بعده وفاء لأستاذنا المرحوم حسني فريز. ولعل كتابه (أبحاث في الأدب الشعبي) يقوم على منهجية أكاديمية دقيقة خطتها العمدة لكل من يريد أن يشتغل بالتراث على نحو أمثل، فالكتاب يتضمن سبعة مباحث مهمة في التراث هي الأمثال الحوارية: الأمثال الشعبية الأردنية أنموذجاً، شعر البكائيات النسوي في الأردن/بكائيات البلقاء أنموذجاً، الأمثال الشعبية الأردنية الثلاثية.. ملامح النكت الشعبية في الأردن، مضاهاة كتاب مجمع الأمثال للميداني لكتاب الأمثال الشعبية الأردنية، وخطاب الجنس في ألف ليلة وليلة. ولم يغفل الدكتور العمدة عن رصد المشتغلين في التراث أحياء وأمواتاً، فقد خصهم في كتابه (كُتّاب ومؤلفون في التراث الشعبي الأردني) الصادر سنة ٢٠١١م، وتضمن الكتاب عشر تراجم بدأها بأحمد عويدي العبادي وأنهاها بحاني العمدة، وقد اشتملت كل ترجمة على سيرة ذاتية وقراءة موجزة لبعض كتب